Le Caire - 16 - 1 1950 —

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Litteraire
Scientifique et Artistique

18me; année no 863

بدل الاشتراك عن سنة
١٠٠ فى مصر والسودان
١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى
ثمن العدد ٢٠ مليما

الاعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العدد ٨٦٣ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢٧ من شهر ربيع الأول سنة ١٣٦٩ — ١٦ يناير سنة ١٩٥٠ — السنة الثامنة عشرة »

على محمود طه

شاعر الاداء النفسى

للأستاذ أنور المعداوى

— ٥ —

تحدثت إليك فى الصورة النفسية الأولى وأعنى بها « الموسيقية العمياء » عن خط الاتجاه النفسى ومكانه من الوحدة الفنية ، وعن أدوات الربط بين الوجود الداخلى والوجود الخارجى أو بين عالمى المشاهد الخفية والمشاهد المرئية ؛ وعن أصول الرؤية الشعرية ومصادرها فى شعر الأداء النفسى ، وتحدثت إليك فى الصورة الثانية وأعنى بها « القمر العاشق » عن الموسيقى الداخلية وقيمها فى شعر هذا الأداء ، وعن الحركة النفسية والحركة المادية . وعن التجسيم الشعرى كأثر من آثار الملكة التخيلية . وتحدثت إليك فى الصورة الثالثة وأعنى بها « التمثال » عن العلاقة النفسية بين الألفاظ ، وعن التصميم الداخلى كدعامة من دعائم الملكة التنظيمية . وعند ما عرضت للملكة الأولى — أقصد التخيلية — قلت إن أول مزية من مزايا هذه الملكة هى التجسيم ، التجسيم الذى يجعل من الحركة الجامدة حركة حية ، ومن الكون المادى الصامت كونا يموج بالمشاعر والأحاسيس ، ومن الصورة التى تمر على اللمس صورة تدركها الحواس ، حتى لتوشك أن تنالها الأيدى وأن تراها العيون . وكانت هذه هى المزية الأولى مطبقة على قصيدة « القمر العاشق » ... أما المزية الثانية فنطبقها على هذه القصيدة الجديدة « حانة الشعراء » ، وقبل هذا التطبيق نقدم الصورة النفسية الرابعة ، هناك فى الصفحة السادسة عشرة من « زهر وخمر » :

هى حانة شتى عجائبها ... معروشة بالزهر والقصب
فى ظلة باتت تداعبها ... أنفاس ليل مقمز السحب
وزهت بمصباح جوانبها ... صافى الزجاجة راقص اللهب
(باخوس) فيها وهو صاحبها ... لم يخل حين أفاق من عجب
قد ظنها ، والسحر قالبها ... شيدت من الياقوت والذهب

***

إبريقه حلى من الدرر ... يزهى به قدح من الماس
وكأن ما حوليه من صور ... متحركات ذات أنفاس
تركت مواضعها من الأطر ... ومشت له فى شبه أعراس
منهن عازفة على وتر ... متفجر بأرق إحساس
وغريرة حوراء ضاحكة القمر ... تحنو على شفتيه بالكاس
أو تلك حانته ؟ فواعجبا ! ... أم صنع أحلام وأهواء ؟
ومن الخيال أهل واقتربا ... «فيدوس» خارجة من الماء!
فى موكب يتمثل الطربا ... ويجيل من سحر وإغراء
وبكل ناحية فتى وثبا ... متعلقاً بذراع حسناء

يتوهجون صبابة وصبا يتمثلون غريب أزياء

***

حمر الثياب تخال أنهمو يفدون من حانوت قصاب
جلسوا نشاوى مثلما قدموا يترقبون منافذ الباب
يتهامسون وهمسهم نغم يسرى على رنات أكواب
إن تسأل الخمار قال هو عشاق فن أهل آداب
لولا دخان التبغ خلتهمو أنصاف آلهة وأرباب
من كل مرسل شعره حلقا وكأنها قطع من الحلك
غليونه يستشرف الأفقا ويكاد يحرق قبة الفلك
أمسى يبعثر حوله ورقا فكأنه فى وسط معترك
فاذا أتاه وحيه انطلقا يجرى اليراع بكف مرتبك
ويقول شعراً كيفما اتفقا يغرى ذوات الثكل بالضحك

***

ياخوس يروى عن غرائبهم شتى أحاديث وأنباء
قصص تداول عن صواحبهم وعن الصبايا فتنة الرائى
وعن الخطيئة فى مذاهبهم بدأت بآدم أم بحواء
واللهات إلى جوانبهم يكثرن من غمز وإيماء
يعجبن من فعل الشراب بهم ويلذن من سأم بإغفاء
وتلفتوا لما بدا شبح ! فتاة دلفت من الباب
حمراء بالأزهار تنشح ألفت غلالتها بإعجاب
ومشت تراقصهم فما لحوا إلا خطى روح وأعصاب
ومرى بسر رحيقه القدح فى صوت شاجى اللحن مطراب
وشدا بجو الحانة الفرح لإلهة فرت من الغاب

***

هى رقصة وكأنها حلم وإذا « بفينوس » تمد يداً
الكأس فيها وهى تضطرم قلبٌ يهز نداؤه الأبدا :
زنجية فى الفن تحتكم ؟ قد ضاع فن الخالدين سدى !
فأجابت الحمراء تبتسم : الفن روحاً كان ؟ أم جسداً ؟
يأيها الشعراء ويحكم الليل ولى والنهار بدا !

هذه المزية الثانية من مزايا الملكة التخيلية هى الرمزية ... وما دمنا نقسم الأداء فى الشعر إلى قسمين : أداء لفظى وأداء نفسى ، ونقسب الموسيقى فى الشعر إلى نوعين : موسيقى اللفظ وموسيقى النفس ، فإننا نفرق أيضاً بين لونين من الرمزية : هما الرمزية اللفظية والرمزية النفسية . وما دمنا نذكر القسم الأول من الأداء ، ولا نقيم كبير وزن للنوع الأول من الموسيقى ، فإننا نستهجن أيضاً ذلك اللون الأول من الرمزية . إن الفارق بين الرمزية اللفظية والرمزية النفسية هو الفارق بين الرمزية المصنوعة والرمزية المطبوعة ! إننا ننشد الوضوح فى الفن لأنه ركن من أركان الجمال فيه وطريق من طرق الإحساس بهذا الجمال ... والشعر فن من الفنون الجميلة لا مراء ، فإذا أخفينا هذا العنصر الفعال الذى يسلكه فى عداد تلك الفنون ؛ إذا أحعيناه وراء ستار من التعقيد والغموض والتعمية والإبهام فقد تلاشى أول بريق أخاذ يمكن أن تتملاه العين فى هذا الفن ، ونعنى به الجمال ! نريد فى شعر الأداء النفسى تلك الرمزية النفسية المطبوعة ؛ الرمزية التى تلف الفكرة العامة أو الموضوع العام بوشاحها الرقيق الذى لا يحجب الضوء ولا تضيع من ورائه المعالم ... وكل رمزية فى واقع الأمر نقاب يلقى على الوجه الجميل ، ولكن هناك وجهاً يحول النقاب الكثيف بين جماله وبين العيون ، ووجهاً آخر يكسبه النقاب الشفيف فوق جماله ألواناً وبين الفتون . وهكذا تجد الفارق الدقيق بين الرمزية اللفظية والرمزية النفسية !

إن الرمزية فى جوهرها ما هى إلا وسيلة من وسائل التعبير تستحيل معها الدركات الحسية إلى مدركات نفسية ... إنها الجسر الذى تعبره الألفاظ والأخيلة والمعانى لتلتقى فى بقعة فكرية بعينها تنطمس فيها الماديات لتحل محلها المعنويات . وهى فى الشعر بعد ذلك ألوان : رمزية جزئية تصب فى قالب اللفظ وحده ولا تتعداه ورمزية مماثلة تقع من الصورة الوصفية المحدودة موقع الإطار ، ورمزية كلية تشمل الهيكل العام أو الموضوع العام للقصيدة . أما رمزية اللفظ فهى رمزية الشطحات التعبيرية ، أما رمزية الصورة فهى رمزية الشطحات التخيلية ، وكلتاهما تمثلان ذلك النقاب الكثيف الذى يلقى ظلاله المبهمة الداكنة على وجه الفن ويحيل الومضة الفكرية ظلاما تتخبط فيه الأذواق وتضطرب المقاييس فى تحديد مداة . هناك لفظ يدفعك إلى أن تبذل فى استجلاء مراميه كثيرا من العناء ، لأنه ينبع من نبع شعورى معقد يتدفق من وجود داخلى معقد ، وهناك صورة تجهد فكرك إذا حاولت أن توفق بين خطوطها المتنافرة ، لأنها مرسومة بريشة الحركة

اللاواعية ، أو لأنها من صنع المخيلة المحلقـة فى آفاق ذهنية لاتعكس منها غير مظاهر الضباب! وهكذا تجد الرمزية المصنوعة حين ترد بها إلى شطحات التعبير والتخيل فى نطاق الصور والألفاظ ، ولا كذلك الرمزية المطبوعة لأنها حركة استبطان نفسى قبل كل شىء ، استبطان تبدأ مرحلته الاولى بجمع المادة الاولية لكل ظاهرة حسية فى مجالها المادى وتبدأ مرحلته الثانيه بفحص هذه المادة الأولية فحصا يرجعها إلى مصادرها من النفس والحياة، وتبدأ مرحلته الثالثة بعمليه المقابلة والموازنة بين الطابع الحسى للظاهره المادية وبين الطابع النفسى للفكرة الفنيه . وفى هذه المرحلة الأخيرة يتم التوافق الدقيق الكامل بين عالمى الماديات والمعنويات !

هذه الرمزية المطبوعة التى نعنيها بهذه الكلمات ، هى الرمزية التى يرفل فيها اللفظ فى أثوابه النفسيـة البسيطة التى لا تختلف وكل ما يماثلها فى الشعر من أثواب ؛ والتى تخطر فيها الصورة الوصفية فى مواكبها البيانية مغمورة بأضواء الحركة الواعية التى تعمل فى وضح النهار ، هذه هى الرمزية التى يبقى فيها الرمز بعد ذلك مقصورا على الفكرة العامة للقصيدة أو مقصورا على الموضوع العام ؛ عندئذ تكون الرمزية فى الشعر عملا فنياً جديرا بالنظر فيه والاطمئنان إليه ، وكذلك كل عمل فنى يخلو من الشعوذة اللفظية والشعوذة الفكرية ابل إننا نخطو إلى أبعد من ذلك خطوة أخرى حين نطالب بأن تكون تلك الرمزية الموضوعيـة أشبه بالخريطة الجغرافية التى تتضح فيها مواقع المرتفعات والمنخفضات، عن طريق « الإيماء » إلى هذه وتلك مما يتعارف عليه من ألوان ... هنا فى مثل هذه الخريطة « ألوان مادية » تومىء أو ترمز للجبال والوديان والأنهار ؛ وهناك فى مثل تلك الرمزية « ألوان نفسية » تومىء هى الأخرى أو ترمز للظواهر والخواطر والمدركات .

بعد هذا تستطيع أن تطبق هذه المقدمة التحليلية تطبيقا نقديا على « جانة الشعراء » فى غير جهد ولا عناء . إنك لن تصادف لفظا واحدا يرهقك بطول الجرى وراء معناه ، ولكنها الألفاظ العادية تسير فى مجراها الطبيعى وتمضى فى طريقها المرسوم ، دون أن تحوجك إلى السؤال تلو السؤال : ماذا يقصد الشاعر ، وإلى أى معنى يهدف ، وإلى أى وجهة نفسية يطلق أفكاره الحنان ! ولن تصادف صورة واحدة تكدح ذهنك فى سبيل الربط بين أجزائها المتنافرة أو التنسيق بين ظلالها المتداخلة وأضوائها المتشابكة ، ولكنها الصور المنتظمة الواضحة التى تخلو من انحراف اللقطة والتواء التعبير وشطح الخيال ، إنك لن تصادف غير شىء واحد هو أن القصيدة فى بنائها العام قد رمز بها إلى معنى عام ، معنى مهد له الشاعر بالأسس التخيلية فى المقطوعات الأولى ليقيم الطابق الأخير فى المقطوعة الأخيرة، وهو الطابق الذى تصعد إليه الرمزية النفسية فى آخر خطوة من خطواتها لتستقر فيه !

هذه الأسس التخيلية هى « الحانة » فى المقطوعه الأولى ثم « باخوس » إله الخمر فى الاساطير الاغريقية القديمة ، ثم « فينوس » فى المقطوعة الثانية وهى إلهة الجمال فى الأساطير الإغريقية أيضا ثم جماعة « الشعراء » فى المقطوعة الثالثة ، ثم تلك « الراقصة السمراء » فى المقطوعة الرابعة . وسترى أن الشاعر قد أخضع الملكة التخيلية لجو الاسطورة الإغريقية بالذات ليصل من وراء ذلك إلى تحقيق غرضين رئيسيين هما على التحقيق دعامتا الرمزية الموضوعية . أولهما هو أن يجمع بين هذه الأسس التخيلية الاربعة فى مجال واحد ، وثانيهما هو أن يتخذ من هذه الأسس معابر إلى الهدف الاخير ، ونعنى به المعنى الذى رمز إليه بموضوع القصيدة .

لقد تمثل على طه أول ما تمثل مشهد الحانة ، ثم تخيل أن يكون صاحبها هو « باخوس » ليخلق نوعا من الصلة الإيجابية بين مكان الخمر وإله الخمر ، ثم تخير أن يأتى بجماعة الشعراء ليوجد نوعا آخر من الصلة الايجابية بين الفن وأصحاب الفن ، ثم تعمد أن يجمع بين « فينوس » ربة الجمال وبين الزنجية الراقصة لينشىء نوعا ثالثا من الصلة العكسية أو السلبية بين مقام الآلهة ومقام البشر !

نعم لقد تعمد أن يجمع بين السمراء والبيضاء أو بين ساكنة الأرض وساكنة السماء وتدخل الزنجية الراقصة إلى الحانة ثم تلقى بغلالتها لترقص أمام أهل الفن ويقبلون عليها فى حركة تم على العجب والإعجاب وتضج الحانة برنين الكؤوس وترتفع الأصوات بالثناء وتحتج « فينوس » وهى تمد يدها بكأس يضطرم فيها الحبب اضطرام قلبها الثائر وشعورها المهتاج . أهل الفن يشغلون عن ربة الجمال والدلال والسحر، بهذه الزنجية ذات القوام الناكن والبشرة الفاحمة ؟ ؟ ياضيعة الفن عند قوم من السكارى لا يميزون وهذه هى اللفتة الأولى مصورة فى هذه الأبيات .

هي رقصة وكأنها حلم وإذا بفينوس تمديدا
الكأس فيها وهي تضطرم قلب يهز نداؤه الأبدا.
زنجية في الفن تحتكم قد ضاع فن الخالدين سدى!

وتبتسم الشعراء ابتسامة تحمل ألف معنى إلى « فينوس » ثم تهتف في ثقة واعتداد :

فأجابت الشعراء تبتسم الفن روحا كان أم جسدا ؟
يأيها الشعراء ويحكم الليل ولى والنهار بدا !

وهذه هي اللفتة الثانية ... وبهاتين اللفتتين الرائعتين يقيم على طه المعبرين الكبيرين للرمزية النفسية أو الرمزية الموضوعية ! ترى هل أدركت المعنى العام الذي يرمز إليه الشاعر في هذه الكلمات؟ لقد أراد هنا أن يعرض لك عن طريق الرمز قصة النزاع الخالد أو قصة الخصومة الخالدة بين أرستقراطية الفن وديمقراطية الفن فأنى « بفينوس » لتمثل النزعة الأولى وأتى بالزنجية الراقصة لتمثل النزعة الثانية، ثم أنطق هذه برأى في حقيقة الفن وأنطق تلك برأى آخر ، ليطلعك على مدى التفاوت بين نظرتين . نظرة الأرستقراطيين إلى الفن ونظرة الديمقراطيين إليه ! أو نظرة تلك الفئة المترفعة التي تريد للفن أن يعتصم بالأبراج العاجية ونظرة هذه الفئة المتواضعة التي تريد له أن يأوى إلى الأبراج الخشبية ليكون قريبا من الناس ... وهي طريقة يبلغ فيها التوفيق مداه حين يصرخ الشاعر على لسان الزنجية الراقصة: ليس الفن جسدا يلتصق بالأرض ولكنه روح تتصل بالسماء ، وليس الفن جسدا يوزن بما فيه من سواد ولكنه روح توزن بما فيها من صفاء ! !

بعد هذا تنتقل إلى ظلال الأداء النفسي منعكسة على الألفاظ ولا أريد أن أقف بك طويلا عند الصور الوصفية المتناثرة هنا وهناك ، حسبي أن أشير إليها اشارات عابرة ، وحسبك أن ترجع إلى الفصول النقدية السابقة لتقوم بعملية التطبيق ... أمامك هذه « الظلة التي تداعبها أنفاس الليل » ، ثم هذه « الصور المتحركات التي تركت مكانها من الأطر » ثم هذه « الغريرة الحسناء التي تحنو على شفتي باخوس بالكاس » ، ثم هؤلاء الفتيان « الذين يتوهجون صبابة وصبا » في موكب فينوس . وعندما تبلغ أول بيت من المقطوعة الثالثة ستصدمك هذه الصورة :

عر الثياب تخال أنهمو يفدون من حانون قصاب

إنها الصدمة الوحيدة في القصيدة ، ومعذرة إذا قلت لك إن الشاعر هنا قد خانه التوفيق ، وليس هناك ما يصدم ناقد الشعر مثل ضعف الرؤية الشعرية وبخاصة إذا جاء هذا الضعف من شاعر يبلغ الأوج في قوة هذه الرؤية في كثير من شعره وهو على طه ... ترى هل أمكنك أن تنفذ إلى موقع الضعف في هذه الرؤية الشعرية ؟ إنه في تلك الصلة الواهية بين حمرة الثياب وبين حانوت القصاب ، لأن واقع الحياة يؤكد لك أن حوانيت القصابين لا تلطخ ثياب الوافدين منها بقطرات من الدم ينتقل فيها اللون من حال الى حال !

ونمضي في عرض صور الاداء النفسي الممتاز فتقدم اليك « هذا الهمس المنغم الذي يسري على رنات الأكواب » ، ثم هؤلاء الشعراء الذين كأنهم « أنصاف آلهة لولا دخان التبغ » ، ثم هذه « الحلق المرسلة من شعرهم وكأنها قطع من الحلك » ... هنا تنبع الرؤية الشعرية من أعماق الحركة الواعية ، لأن الشاعر لم يغفل عن السمات المعروفة لطريقة إرسال الشعر على هيئة حلقات عند شعراء الاغريق مادام قد دفع بالملكة التخيلية إلى جو الأسطورة الاغريقية . ثم هذه الاشارة الطريفة في هذا « الفليون الذي يستشرف الأفق ويكاد يحرق قبة الفلك » ؛ إنها إشارة إلى خيلاء الشاعر ممثلة في تصوير الحركة المادية التي تنم عن الشموخ والاستعلاء ! ثم هذه الصور الوصفية الثلاث في الأبيات الثلاثة التالية ، إنها لمسات موفقة تبرز لك أحوال الشعراء عندما يهبط عليهم الوحي ، في رأى نخار مخمور !

وفي المقطوعة الرابعة تروعك هاتان التحليقتان من تحليقات الخيال:

قصص تداول عن صواحبهم وعن الصبايا فتنة الرائي
وعن الخطيئة في مذاهبهم بدأت بأدم أم بحواء !

ثم هاتان الصورتان من صور الوصف :

ومشت تراقصهم فما لحوا الاخطى روح وأعصاب
وسرى بسر رحيقه القـــدح
في صوت شاجي اللحن مطراب

ثم هاتان الوثبتان من وثبات الأداء :

هي رقصة وكأنهـا حلم وإذا بفينوس تمديداً
الكأس فيها وهي تضطرم قلب يهز نداؤه الأبدا !

ولا تنس هذا التوزيع الايقاعي في هذه الموسيقى الراقصة التي تتلاءم كل الملاءمة مع الجو الشعري للقصيدة ... إننا مرة أخرى في آفاق الذاتية الغنائية (يتبع)

أنور المعداوي